مكتبة تحقيق التراث الإسلامي

رئيس التحرير
الدكتور محمد عبد المطلب البكاء

دوح

مجلة تراثية فصلية محكّمة
من دار الشؤون الثقافية العامة ـ وزارة الثقافة والإعلام
الثامن والعشرون ، العدد الرابع ـ ٢٠٠٠ م ـ ١٤٢١ هـ

في هذا العدد

لم تعرف (الكوفة) بهذا الاسم قبل تمصيرها ، وحين مصرت اطلق عليها هذا الاسم الذي اختلف المؤرخون في أصل التسمية به ، قال ابن سيده : الكوفة بلد سميت بذلك لان سعداً لما اراد ان يبني الكوفة ارتادها لهم ، وقال : تكوفوا في هذا المكان ،اي اجتمعوا فيه » .والتكوف : التجمع . وذكر ياقوت وغيره اقوالاً كثيرة اوجهها انها « سميت كوفة بموضعها من الارض ، وذلك ان كل رملة تخالطها حصباء تسمى كوفة » .

وقد نمت الكوفة بعد تمصيرها سريعاً حتى اصبحت حاضرة عراقية كبيرة في مطلع القرن الرابع الهجري ، وذلك بحكم موقعها واشرافها على سهل واسع فضلاً عن خصب الارض ، ووفرة المياه . قال الاحنف بن قيس فيها : « نزل اهل الكوفة بين الجنان الملتفة ، والمياه الغزيرة ، والانهار المطردة تاتيهم ثمارهم غضة لم تُخْضَد ولم تفسد » .

وعلى الرغم من ان الكوفة حديثة العهد بالنشوء اذا قيست بالبصرة اذ خططت بعد تخطيط البصرة بسنتين او ثلاث الا ان الاتصالات بينهما سرعان ما بدأت منذ ان مصرت الكوفة فلم يحدث شيء في البصرة الا وجدت صداه في الكوفة وما عرف شيء في الكوفة ، الا رأيت اثاره في البصرة ، بعد ان نزل فيها سبعون رجلاً من صحابة رسول الله (ﷺ) ممن شهدوا بدراً ، وثلاثمائة من اصحاب الشجرة .. وفي مقدمة من نزلها من الصحابة عمار بن ياسر ، وعبد الله بن مسعود ، وقد بعث بهما الخليفة عمر (رض) ليكون الاول اميراً ، والثاني مؤذناً ووزيراً ، وقال في تعريفهما لأهل الكوفة : « هما من النجباء ، من اهل بدر ، فخذوا عنهما ، واقتدوا بهما ، وقد اثرتكم بعبد الله ابن مسعود على نفسي » .

ملف العدد : الكوفه كنز الايمان ١٩ - ٤٨

وقيل فيها: « الكوفة بلاد الادب ، ووجه العراق ، وهي غاية الطالب ومنزل خيار الصحابة ، واهل الشرف »

المحرر

الهيأة الاستشارية
الاستاذ هلال ناجي
د . سامي مكي العاني
د . محمود عبدالله الجادر
د . عماد عبدالسلام رؤوف
الاستاذ أسامة النقشبندي

مدير التحرير
د . هدى شوكت بهنام

سكرتير التحرير
د . مي فاضل الجبوري

التصميم والاخراج الفني
جنان عدنان لطيف

التصحيح اللغوي
نجلة محمد

عنوان المراسلة
دار الشؤون الثقافية العامة ـ
الأعظمية
ص . ب : ٤٠٣٢ بغداد
جمهورية العراق
هاتف : ٤٤٣٦٠٤٤
فاكس : ٤٤٤٨٧٦

الأسعار
العراق : ٢٥٠ ديناراً ، الأردن : ديناران ،
الإمارات : ٣٠درهماً ، اليمن : ٣٠ ريالاً ،
مصر : ٣ جنيهات ، ليبيا : ٣ دناتير ،
الجزائر : ٦٠ ديناراً ، تونس : ديناران ،
المغرب : ٣٠درهماً

المشاركة السنوية : ٥٥ دولاراً في الأقطار العربية . في دول العالم الأخرى ٨٠ دولاراً

www.dorat-ghawas.com

يـــوم الأحـــزاب
(معركة الخندق)

العميد الركن
عبد القادر التحافي

((ولَمَّا رأى المُسلِمونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ ورَسُولُهُ، وصَدَقَ اللهُ ورَسُولُهُ ومازَادَهُمْ إلاَ إيماناً وتَسْليما))

"صدق الله العظيم"

الحمد لله وحده ، الكبير المتعال ، هازم الاحزاب في شوال ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده سيدنا محمد أسوة المؤمنين الابطال . ولا زال التوفيق ملازماً جنده في السلم والقتال ، وعلى كلّ حال .

أما بعد . فان أيام الاسلام (المعارك) الحاسمة في القرآن ، هي : يوم الفرقان (معركة بدر) ويوم التقى الجمعان (معركة أحُد) ويوم الاحزاب (معركة الخندق) ويوم الفتح المبين (فتح مكة) ويوم حنين (معركة حنين) .

وهذه ورقة عسكرية مجالها التاريخ الاسلامي في عهد النبوة وتختص بيوم الاحزاب يوم تألبت قريش وحلفاؤها على نبعة الأسلام الطرية في عامها الهجري الخامس فهزم الله الأحزاب بجنده المرئيين وغير المرئيين . والغرض من هذه الورقة بيان الأجراءات العسكرية الدفاعية تجاه هجوم الأحزاب ، ولا سيما مواصفات الخندق المحفور الذي باغت المسلمون به المشركين ، وكيفية الدفاع عليه وخلفه مما أثار الدهشة في تلك الأيام .

وقد عنونتها (يوم الاحزاب) لأن اليوم عند العرب حتى ذلك التاريخ يعني المعركة ، وأنّ الاحزاب تسمية قرآنية للفئات المتآلفة بأصرار للصدّ عن سبيل الله في ذلك اليوم . وقد جمعت لباب النقول من أربعة مصادر اصول هي : مغازي الواقدي ، وسيرة ابن هشام ، وطبقات ابن سعد ، وتاريخ الطبري ، ومراجع اخرى حسنة افدتُ منها واشرتُ اليها في الحواشي (الهوامش) ليعود اليها من طلب المزيد او النص المسطور فقد كنت أحياناً متصرفاً فيما التقطت من سبائكها الثمينة تصرف من يُعنى بقنص المعنى دون نص المبنى . فلمؤلفيها ـ جزاهم الله خير الجزاء ـ دعائي الوافي وشكري الزاخر وثنائي الوافر .

صدر الكلام (الموقف العام)

هدأت الجزيرة العربية بعد غزوات الرسول (ﷺ) وسراياه التي استغرقت زهاء سنتين منذ معركة أُحُد تطوف منتشرة في الجوار ، وعاد الأمن والأستقرار الى الديار ، لكنّ اليهود الذين كانوا قد عوقبوا على غدرهم وخيانتهم ومؤامراتهم لم يفيقوا من غيّهم ولم يتعظوا بما أصابهم نتيجة الغدر والتآمر . فبعد اجلاء بني النضير عن حصونهم ورحيلهم الى خيبر ظلّوا ناراً تحت رماد ينتظرون ما يحلّ بالمسلمين عقب المناوشات التي كانت جارية بين المسلمين والمشركين . ولما تعزز موقف المسلمين وتحولت الظروف لمصلحتهم وبسطوا نفوذهم ورجحت كفتهم ، وتوطد سلطانهم ثارت حفيظة اليهود كرّة أُخرى ، فنفضوا الرماد عن نار الاحقاد وطفقوا يتآمرون من جديد على المسلمين ، ويتهيأون للنيل منهم بضربة قاضية . ولمّا لم يكونوا يجدون في أنفسهم الجرأة على المواجهة الحربية المباشرة ، خططوا لهذه الضربة خطة رهيبة وباشروا بتنفيذها بانقضاء صيف سنة أربع هجرية (٦٢٦) ميلادية ، فخرج وفد مؤلف من عشرين رجلاً من يهود بني النضير من خيبر ، ومن بني وائل وغيرهما الى مكة برئاسة حيي بن اخطب الذي كان من قبل زعيم بني النضير في المدينة حتى قدموا على قريش وتفاوضوا مع ابي سفيان ورهطه وأثاروا

www.dorat-ghawas.com

قلق قريش ومخاوفها من انتشار الاسلام في الجزيرة العربية ، واذا ما وصل المسلمون الى اليمامة فان طرق تجارتها الى البحرين والعراق سيصيبها الانغلاق ، ودعوهم الى حرب رسول الله (ﷺ) حرباً حاسمة يوالونهم فيها ويعدونهم بجر النصر اليهم ويمنونهم بالزعامة .[1]

قالت قريش لهؤلاء النفر : « يا معشر يهود انكم أهل الكتاب الأول ، والعلم بخلافنا مع محمد ، أفديننا خير ام دينه ؟ » قالوا : « بل دينكم خير من دينه وأنتم اولى بالحق منه » . فهؤلاء النفر هم الذين انزل الله تعالى فيهم" الم تر الى الذين اوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبتِ والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً" أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجدَ لهُ نصيراً *[1]

إستبشر القرشيون بذلك ونشطوا لما دعوهم اليه ووافقوا على حرب محمد اذا انضمت اليهم قبائل عربية اخرى .[2] ثم ذهب الوفد الى غطفان من قيس عيلان وبني أسد ، ودعوهم الى حرب المسلمين واخبروهم انهم سيكونون معهم عليهم وان قريشاً قد تابعوهم على ذلك ، فحققوا نتائج مذهلة باستجابة غطفان وبني أسدٍ لهم .[4] ثم طاف الوفد في سائر القبائل المجاورة يدعوهم الدعوة عينها فاستجاب لهم من استجاب ، وتم الاتفاق على الاشتراك في حملة كبيرة لقتال المسلمين . وهكذا نجح ساسة اليهود وقادتهم في تاليب أحزاب الكفر والشرك على روّاد الدين الاسلامي .

وفعلًا خرجت من الجنوب قريش وكنانة وحلفاؤهما من أهل تهامة ، ووافاهم بنو سليم بمر الظهران . وخرجت من الشرق قبائل غطفان الثلاثة : بنو فزارة بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان وبنو اشجع بن ريث بن غطفان وبنو مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان ابنُ بغيض بن ريث بن غطفان .[5] كما خرجت بنو أسد وغيرها واتجهت هذه الاحزاب صوب المدينة على ميعاد متفق عليه . ولما سمع الرسول (ﷺ) بما اجمعوا عليه من حربه حَصّنَ المدينة وابتدع خندق الميدان في أنسب مكان للدفاع عنها .

قوات الطرفين وأهدافهما

المشركون : بدأت الاستعدادات للحملة التعرضية بتجمع القبائل قبيل شوال سنة خمس هجرية الموافق لأوائل شباط سنة (٦٢٦) ميلادية . جهزت قريش ومن تبعها من أحابيشها قوة فائقة بقيادة أبي سفيان وحامل لوائها عثمان بن طلحة العبدري قوامها اربعة الاف مقاتل ، وثلاث مئة فرس ، والف وخمس مئة بعير . تليها بالضخامة غطفان (بنو فزارة وبنو اشجع وبنومرة) التي جهزت زهاء الفي مقاتل ، منهم الف فزاري بامرة عيينة بن حصن ومعهم ثلاث مئة فرس ، وألف بعير. ومنهم أربع مئة أشجعي بامرة مسعر بن رخيلة . ومنهم اربع مئة مقاتل مري بامرة الحارث بن عوف . والمئتان الأخريان من المتفرقة التابعة . وجهزت قبيلة بني سُليم سبع مئة مقاتل بقيادة أبي الاعور سفيان ابن عبد شمس . وخرجت قبيلة بني اسد وحلفاؤها المنحازون اليها بقيادة طليحة بن خويلد ، فكان تعداد هذه الاحزاب ، بضمنها القبائل الصغيرة عشرة آلاف مقاتل تسلم قيادتهم العامة ابو سفيان ونظمهم في ثلاثة حشود هي ، قريش ، وغطفان ، وبنو سليم .[1] وجرى الاتفاق على ان يتناوب رؤساء القبائل قيادة العمليات التعبوية اليومية على التوالي ، وعلى الرغم من ان هذا يهدئ الغيرة والحسد بين الرؤساء القادة الا انه يبدد وحدة الرأي لصانع القرار ، ويعيق تنظيم الأفكار ، ويجعل اية عمليات منسقة للحصار في غاية الصعوبة .

ولعل من اللازم ان نضيف الى الآلاف العشرة مقاتلي بني قريظة وعددهم سبع مئة وخمسون محارباً (العوالي)[2] كان هدف المشركين الرئيس هو الصدُّ عن سبيل الله بالقضاء على الدعوة الاسلامية في مهدها بغية احتفاظ كبار رؤساء القبائل بمراكزهم القبلية واحتفاظ أحبار اليهود بمراكزهم الدينية فضلًا عن انعاش اقتصاد مكة .

المسلمون : كان جيش الرسول (ﷺ) قد بلغ ثلاثة الآف مقاتل إجمالًا بضمنه فئة من المنافقين .[3] لذا كانت نسبة تفوق المشركين بالمقاتلين متجاوزة (٣ / ١) وبالفرسان عالية جداً ، فلابد من معادلتها بالمعنويات ، وبالتخطيط السليم وبالتدابير الدفاعية المحكمة ووحدة الصف والأيمان الراسخ والاحتفاظ بروح النصر .

وكان هدف المسلمين الدفاع عن عقيدتهم الدينية ، وعن انفسهم لانهم أدوات نشر الدعوة ، وأخيراً حماية دار الهجرة المدينة المنورة مقر القيادة الاسلامية ، وكانفة المسلمين الامينة ، ودرعهم الحصينة الرصينة .

وصف الأرض

تقع المدينة المنورة قاعدة الحكومة الاسلامية ونقطة انطلاق جيوشها وسط حصون طبيعية محكمة . وأبرز معالمها جبل أُحُد الصخري الواقع شمالها بخمسة اكيال ،[4] ويمتد من الغرب الى الشرق قبالة طرفي حرة واقم ووادي العقيق ، ويفصل الجبل عن مشارف المدينة وادي قناة الموازي للجبل والمار من سفوحه الغربية بمُحاذاة مرتفع عينين ويصب عند مجمع الاسيال في منطقة زغابة . يتفرع من شمال المدينة طريقان يسيران بموازاة جبل سلع ، ينتهي أحدهما عند رأس الجبل الشرقي ويتجه الآخر الى الشام . ويمتد وادي العقيق الكبير الى الغرب من المدينة بنحو

www.dorat-ghawas.com

أربعة اكيال فيما وراء حرة الوبرة التي تحدّ المدينة من الغرب ، وتبدأ قبالة قُبا من الجنوب عند ذي الحُليفة .

ومن سكان هذه الحرة بنو سلمة وبنو ساعدة . وتقع شمال الوبرة بئر رومة قرب مجمع الأسيال حيث التقاء وادي بطحان بوادي قناة ثم التقاؤهما بوادي العقيق . والمنطقة عموماً لا تخلو من الجداول والعيون والآبار . ويحد المدينة من الجنوب جبل عير المنتهي طرفه عند قبا حيث الخصوبة المعطاء والوديان المتشبعة . ويحد المدينة من الشرق حرة واقم وتقع في نهايتها الجنوبية العوالي المكتنفة بوادي مذينب ووادي مهروز وفيها منازل بني النضير ، ويليها الى الشمال منازل بني قريظة . وتقع منازل بني حارثة شمال الحرة عند العطفة وتدعى حرة بني حارثة .[٥] وتقع الى شمال وادي مهزور ثلاث حارات للأوس ؛ بني ظفر ، وبني عبد الاشهل في وسط الحرة ، وبني حارثة الى الشمال كما اسلفنا . ويتوسط الحرتين ، حرة واقم وحرة الوبرة جبل سلع شمال المدينة ، وعن يمين سلع يقع تل ذباب وعن يساره جبل بني عبيد ومسافة بينها زهاء كيلين .[٦]

الاعمال التمهيدية

المشركون : أعدت الاحزاب قوة ضخمة من حيث العدد والعدة ما كان لها في ايام العرب من قبل مثيل ، وتكاملت رجالًا وذخيرة وأحلافاً ، وخيلًا وابلًا وأعلافاً . وتحركت هذه الاحزاب تجاه المدينة على ميعاد وعهد واعتماد ، وحطت رحالها واقامت مخيماتها حيث سبق ان نزل المشركون في معركة احد . عسكرت قريش في السهل غرب أحد في منطقة مجمع الأسيال بين الجرف وزغابة . أما غطفان ولفيفها وبنو اسد فعسكروا في (ذنب نقمى) بجانب أحد .[٧] وليس في المنطقة ذلك الوقت مرعىً لحيواناتهم ، ومصدر علف إلّا ما حملوه معهم . وما ان تكامل جمعهم حتى قرروا الزحف على المدينة . وقد اسهم اليهود في الاعداد المادي ببذل المال ، والأعداد المعنوي بالدعاية المنظمة في إثارة مخاوف الاحزاب من تسلط المسلمين على رحاب البدو والحضر والاعراب .

المسلمون :

وصلت أنباء تكتلات الأعداء الى النبي (ﷺ) اولًا فاول . وبلغه ايضاً ان سائر الأحزاب سيتلقون العون من اليهود ، والدعم من المنافقين والتاليب من ابي عامر الراهب الفاسق مباشرة قبل حركتهم نحو المدينة حتى انتهاء مهمتهم بالقضاء على المسلمين . كما انباه ارصاده أنّ جيش مكة لم يُكمل تجهيزه بعد . وان لغطفان قوة لا يستهان بها . لهذا خرج من المدينة في هذا الوقت العصيب ، مرةً باربع مئة محارب الى ذات الرقاع ، وأخرى بألف محارب الى دومة الجندل كسباً للمعلومات وارهاباً لقبائل الجوار ومنعاً لما يتوقع من تحالفات . وقد مرَّ في طريقه بديار غطفان ورأى ان يستميل زعيمهم الى الاسلام او يوادعه على حفظ السلام ، او يبقيه على الحياد في قابل الأيام . وحاوره حواراً هادئاً حول هذه القضية فاجابه زعيم غطفان : « انا متفق مع قريش على قتالكم ، وقد وعدني اليهود بثمار سنة كاملة من نخيل خيبر متى تمّ لنا النصر ! فهل لديك عرض أفضل ؟ والّا فاني ملتحق وقبيلتي بقريش لنحمل معاً على المدينة . » . لقد كان صادقاً في ما قاله ، فمن عادة عرب البادية قول الصدق والبوح بالحقيقة دون مواربة أو خداع . لذا عاد الرسول (ﷺ) الى المدينة مسرعاً . ودهش عبد الله بن ابيّ من هذه العودة السريعة . وبعد العودة دخل المدينة فتيان من قبيلة خزاعة قادمين من مكة وقد قطعوا المسافة في اربعة ايام بلياليها من غير استراحة واعلموه ان جيش قريش تحرك من مكة ويقطع المسافة في إحدى عشرة ليلة . عندها أمر النبي (ﷺ) بالاستعداد للمواجهة فوراً .[٨]

وكان الناس قد حصدوا محاصيلهم الموسمية قبل شهر ، وباشروا يدخلونها حصونهم لئلا يستغلها الغزاة .

نَدَبَ الرسول (ﷺ) جنده وأخبرهم خبر عدوهم وأمرهم بالجد والاجتهاد ، ووعدهم بالنصر ان هم صبروا واتقوا ، وامرهم بطاعة الله ورسوله وشاورهم في امرهم ، وكان يكثر من مشاورتهم في الحروب فقال :

« أنبرزُ لهم من المدينة ام نكون فيها ونخندقها علينا ، ام نكون قريباً ونجعل ظهورنا الى هذا الجبل ؟ » فقالت طائفة : نكون مما يلي بعاث الى ثنية الوداع الى الجرف . وقالت اخرى : أنخرج وندع المدينة خلوفاً ؟ »

(اي من غير رجال يحمونها) . فقال سلمان (رض) : يا رسول الله ! انا كنّا بفارس اذا تخوفنا الخيل خندقنا علينا فهل لك يا رسول الله ان نتخندق ؟ . فاعجب رأي سلمان المسلمين ، واقره الرسول (ﷺ) ، وعزموا على حفر الخندق وبدأوا التنفيذ من فورهم[٩]

الخندق

ركب الرسول (ﷺ) ونفر من اصحابه المهاجرين والانصار يعاشونه لاستطلاع الموضع الملائم فجالوا في الميدان حتى ارتاد موضعاً ينزله وكان أعجب المنازل اليه (اي انتخب منطقة دفاعية فُضلى) ورأى ان يجعل جبل سلع خلف ظهره ويخندق بين الحرتين ، حمايةً للاقسام المكشوفة المعرضة للخطر من محيط المدينة الخارجي ، مستفيداً اقصى استفادة من الموانع الطبيعية المحيطة بالمدينة زيادة على تحصين الدور الخارجية القريبة من المحيط .

www.dorat-ghawas.com

وعقد رايتين لفئتين تتنافسان في أقصى البذل البدني في حفر الخندق ، الراية الاولى للانصار وسلمها الى سعد بن عبادة وكلفهم بانجاز حفر الخندق من تل ذباب ، والى جبل بني عبيد في الغرب . والراية الثانية للمهاجرين وسلّمها الى زيد بن حارثة وكلفهم بانجاز الحفر من تل ذباب والى حصن راتج في الشرق حتى الشيخين وحرة واقم .[١٠] (ينظر المخطط) وأمر الرسول (ﷺ) بالمباشرة الانية بالحفر وشارك هو نفسه فيه ، وكان حدد مكان الخندق بدقة متناهية وقسّم كامل طوله بين المسلمين كما اسلفنا وخصص لكل عشرة رجال حفر أربعين ذراعاً طولًا . من اجل تكوين عدد من الحضائر المتآلف افرادها المتعاونة المتكافلة فيعمل افرادها عملًا جماعياً واعياً . فعملت الاغلبية المؤمنة حقاً بجد واجتهاد ، ونكران ذات حتى أخذ منها التعب كل ماخذ ، ذلك التعب المنتج المبهج ، وجعل الرجل من المسلمين الملتزمين الممحصة قلوبهم ، الثابت ايمانهم ، الراسخة عقيدتهم ، اذا نابته نائبة من الحاجة التي لابد منها يستأذن رسول الله (ﷺ) في اللحوق بحاجته فيأذن له فاذا قضى حاجته رجع الى مكانه ، والى ما كان عليه من عمله رغبةً في الخير واحتساباً له ، فانزل الله تعالى" انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله واذا كانوا معهُ على امر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ان الذين يستأذنونك اولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فاذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله ان الله غفور رحيم »[١١] * وكان المنافقون يورون بالضعيف من العمل ويتسللون الى أهاليهم بغير علم الرسول (ﷺ) ولا إذنه فانزل الله عز وجل فيهم * « لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لو اذاً فليحذر الذين يخالفون عن امره ان تصيبهم فتنة او يصيبهم عذابٌ اليمٌ * الا ان لله ما في السماوات والارض قد يعلم ما انتم عليه ويوم يرجعون اليه فينبئهُم بما عملوا والله بكل شيء عليمٌ » *[١٢] اي قد علم ما انتم عليه من صدقٍ أوكذب .

ومرة ظهرت في اثناء الحفر صخرة صلدة لا تاخذ منها المعاول فاشتكوا ذلك الى رسول الله (ﷺ) فاخذ المعول وقال « بسم الله الرحمن الرحيم ، ثم ضربها ثلاثاً فلمعت ثلاثاً فقال في الاولى : الله اكبر أعطاني الله مفاتيح الشام .

وفي الثانية : الله اكبر اعطاني الله مفاتيح فارس . وفي الثالثة الله اكبر أعطاني الله مفاتيح اليمن . » او كما قال . وهكذا يتحدث رسول الله (ﷺ) الى أصحابه وهم في اشد اوقاتهم عسراً وحراجة فيرفع هممهم ويعلي عزماتهم ويظهر لهم بُعد همته ومدى اتساع رسالته .[١٣] وكانت أشعار حسان بن ثابت وأمثاله من الشعراء غذاءً روحياً للمسلمين يساعدهم على تركيز الجهود .[١٤]

وكان عمارة بن حزام الصبيّ صاحب الصوت العذب والبالغ من العمر اثنتي عشرة سنة يتنقل باهازيجه الحماسية وأغانيه المطربة بين اقسام الخندق لتنشيط السواعد وابعاد الكلل عن ان يؤثر في جودة العمل .[١٥] وامتد الخندق من الشيخين الى تل ذباب ومنه الى جبل بني عبيد فدخلت جميع تلال المكان بحماية الخندق . ومن جهة الغرب كان الخندق يمتد جنوباً لتغطية التلين المعروفين باسم جبل بني عبيد . وتمتد الى الشرق من الشيخين أراضٍ بركانية مغطاة بصخور كبيرة رمادية لا تصلح لقتال فعال . وتمتد جنوب غرب جبل بني عبيد أراضٍ مماثلة . وتتحدد الحركات في كلتا الحرتين الموصوفة آنفاً . والى الجنوب قليلًا من منتصف الخندق يقع جبل سلع وارتفاعه زهاء مئة وعشرين متراً ، وطوله زهاء كيل ونصف كيل ، وامتداده العام من الشمال الى الجنوب وله طنوف في اكثر من اتجاه . ويقع تل ذباب شمال شرق اوسع هذه الطنوف .[١٦]

قد يتبادر الى الذهن سؤال متفرع قوامه : هل عرفت العرب الخندق قبل يوم الاحزاب ؟ كم كانت أبعاد خندق يوم الاحزاب ؟ ما هي مواصفاته الاساسية ؟ كم فرداً عمل في انجازه ، وكم يوماً دام العمل ؟ كم متراً مكعباً من التراب نزح الفرد الواحد طيلة أيام العمل وكم نزح الفرد الواحد في اليوم الواحد ؟ هل بامكان الفرد انجاز هذه الكمية ضمن الطاقة البشرية ؟

قبل النزوع الى الاجابة عن هذه الفروع ، ندرج فيما يأتي المعلومات المتيسرة المعينة على الجواب وهي :

١ . عدد المسلمين الذين شاركوا في الحفر ثلاثة آلاف محارب عامل .

٢ . ذكر العمري ، نقلًا عن مجمع الزوائد للهيثمي وعن تفسير الطبري وعن فتح الباري للعسقلاني ، ان طول الخندق خمسة آلاف ذراع وعرضه تسعة أذرع وعمقه يتراوح بين سبعة اذرع الى تسعة ، وان الرسول (ﷺ) خصص لكل عشرة مسلمين حفر اربعين ذراعاً معاً .[١٧]

٣ . الذراع الاساس أو الذراع الاصلي المستعمل في كتب الفقهاء يساوي (٤٦ر٢٠) سنتمتراً .[١٨]

٤ . ذكر جورجيو ان طول الخندق إثنا عشر الف ذراع ، وعمقه اكثر من خمسة أذرع ، اي ثلاثة أمتار ، وأنّ الرسول (ﷺ) خصص لكل عشرة مسلمين حفر أربعين ذراعاً معاً . ٥ . ذكر الجنرال أكرم أن الرسول (ﷺ) خصص لكل عشرة مسلمين حفر اربعين ذراعاً معا ، وان الذراع في هامش المترجم يساوي (٤٥ر٧٢) سنتمتراً . وان الخرائط الحديثة الدقيقة الخاصة بمنطقة المدينة اظهرت ان طول الخندق اثنا عشر ألف ذراع .[١٩]

ومما تقدم راينا ان الجواب المتواضع القريب الى الواقع هو :

www.dorat-ghawas.com

الفرع الاول : نعم . لقد عرفت العرب الخندق قبل يوم الاحزاب ، عرفه ابناؤها ورآه من سافر منهم في رحلاتهم الى الشام والعراق ، رأوه حول كثير من المدن التي حكمها الفرس والرومان آنذاك . ومن يقرأ في معجم لسان العرب لابن منظور مادة (خنق) يجد بيتاً للقطامي الشاعر نصه :

كعناء ليلتنا التي جُعلتْ لنـــا
في القريتين وليلةٍ في الخندقِ

والخندق : الحفير ، والمحفور . قال الراجز :

لا تحسبنَّ الخنـــدقَ المحفـــورا
يـدفـعُ عنكَ القـدرَ المقـــدورا

كما أن حصون ثقيف محاطة بجدار وخندق ذي رائحة كريهة من تجمع مياه الدباغة .

وقال بجير بن زهير بعد حصار الطائف :[٢٠]

ولقـــد تعرضنـا لكيما يخـرجوا
فتحصنـــوا منـــا بـبـاب مُغلقِ
لم يمنعـــوا منا مقـاماً واحـداً
إلّا جـــدارهم وبطنَ الخنـــدقِ

الفرع الثاني (الابعاد) : كان طول الخندق إثنا عشر ألف ذراع برأي الاغلبية وعرضه تسعة أذرع وعمق سبعة أذرع .

الفرع الثالث (المواصفات) : لابدّ انه كان عريضاً يمنع الفارس من القفز بفرسه من فوقه ، وكانت جدرانه عمودية قائمة تحدّد النزول الى قعره ، وخالياً من المياه لئلا يعبره الفارس ، والفرس سباحة ، والرجالة على طوف خشبي او في قارب صولة لأن الماء يساعد على ذلك . وأن يكون محمياً بالدوريات اليقظة ، ومواقع الرصد مع التركيز على حماية النقاط الواهنة بقوات ثابتة باسلة تتميز بالصبر والثبات ، ومتسلحة فضلاً عن السلاح الشخصي (السيف) باسلحةٍ بعيدة المدى ، بالأقواس والنبل ، وحتى الحجارة والمقاليع .

الفرع الرابع (العدد) : ثلاثة آلاف مسلم لمدة ستة أيام عمل .

الفرع الخامس (التراب المزاح) : تُحول الابعاد الثلاثة من قياس الذراع الى المتر بضرب كل منها بالنسبة (٤٦٢ ر ٠) متر .

الطول ١٢٠٠٠ × ٠ر٤٦٢ = ٥٥٤٤ متراً

العرض ٩ × ٤٦٢ ر٠ = ٤ر١٥٨ متراً

العمق ٧ × ٤٦٢ ر٠ = ٣ر٢٣٤ متراً

تقسيم الطول على العمال ٥٥٤٤ ÷ ٣٠٠٠ = ٨٤٨ ر ١ متر طول لكل عامل

∴ ١ر٨٤٨ × ٤ر١٥٨ × ٣ر٢٣٤ = ٢٤ر٨٥ متراً مكعباً من التراب ما يزيحه العامل الواحد في ستة ايام

٨٥ ر ٢٤ ÷ ٦ = ٤ر١٤ متراً مكعباً من التراب ما يزيحه العامل الواحد في يوم واحد .

الفرع السادس (المقدرة) : نعم بمقدرة الفرد المسلم المتوكل على الله انجاز ذلك فهو ضمن طاقة البشر عموماً .

وقد اقترض المسلمون من يهود بني قريظة الذين لم ينقضوا عهد موادعتهم حتى الآن آلات الحفر من مساح ومعاول وفؤوس ومكاتل . وتم حفر الخندق في ستة ايام كما ورد في جواب الفرع الرابع من السؤال الماضي .[٢١] وزعموا انه انجز في خمسة عشر يوماً وزادوا اكثر حتى بلغوا الشهر .[٢٢] وهذا زعم لا يضده دعم ، لأن القول بان اكمال حفر الخندق في ستة ايام قول معقول منقول مقبول ، وفيه اقتراب يلامس الصواب ان لم يكن الصواب عينه . اما القول بان العمل في الخندق خمسة عشر يوماً فاكثر فيتعارض مع وقت الأحزاب المتيسر لهم للتنقل من مكة الى المدينة . ولا تاويل له الا ان يكون زلة قلم ، وان المقصود هو مدة البقاء في العراء من اجل الحفر ومقاتلة الاعداء وليس مدة الحفر فقط . ان الرسول (ﷺ) والمؤمنين لم يباشروا بحفر الخندق الا بعد سماع خبر تحرك قريش من مكة . لقد اتاه بالخبر اليقين فتيان خزاعة الذين تركوا مكة يوم تحرك الاحزاب منها ، ووصلوا المدينة في اربعة ايام بلياليها . فلو فرضنا وصول قريش الى المدينة في احد عشر يوماً كاعلى تقدير [٢٣] وان المسلمين باشروا بالحفر ضحى اليوم التالي لوصول الفتيان فيكون المتيسر للمسلمين سبعة ايام لا غيرها (١١ - ٤ = ٧) . (انظر تسلسل الحوادث لاحقاً) .

إحتلال الموضع (مقاعد القتال)

المشركون :

لم يكن للمشركين موضع مختار ليحتلوه فهم غزاة مهاجمون وانما تجمعوا كما ذكرنا في منطقة تحشدهم عند مجمع الأسيال . فخيمت قريش ومن والاها عند بئر رومة بين الجرف وزغابة . ونصبت غطفان ومن والاها خيامها عند ذنب نقمى بجانب أُحد على بعد ثلاثة اكيال منه .[٢٤] والكل بانتظار خروج المسلمين اليهم والا فسيهاجمونهم في عقر دارهم ومقر قيادتهم المدينة المنورة الكانفة المحصنة .

المسلمون :

بعد اكتمال الأعمال الخاصة بحفر الخندق وتحسينه ، أقام

www.dorat-ghawas.com

المسلمون معسكرهم أمام جبل سلع مباشرة ، وكان الوقت شتاءً قارساً قاسياً ، وكانت قوتهم الاجمالية ثلاثة آلاف مقاتل ينبغي زجُّها للدفاع الموضعي وحماية المدينة من الخلف .[٢٥] وقضت خطة النبي (ﷺ) ان يحتفظ بالقسم الاكبر من القوة بين الخندق وجبل سلع وتشديد الحراسة حيال الخندق والمدينة معاً اتقاءً من المباغتة المحتملة لانه أدرك بفراسته ان للعدو إمكان ملء الميدان بقوته الكثيرة العدد وتفريقها ونشرها على امتداد الطرف البعيد من الخندق والحصول على اكثر من موطيء قدم واحد عبر الخندق في اكثر من موقع . ولهذا خصص الرسول (ﷺ) مئتي رجل على طول الخندق كارصاد كالاوتاد على التلال المسيطرة على الخندق والمشرفة عن كثب على تحركات العدو الاعتيادية والمباغتة والاخبار بها والانذار السريع لمقر القيادة . وخصص مئتي رجل بقيادة سلمة بن أسلم تتناوب مع ثلاث مئة رجل بقيادة زيد بن حارثة لتأليف قوة متنقلة للقيام باعمال الدوريات البعيدة المدى حول الخندق والدور الخارجية من محيط المدينة لرصد المتسللين الذين ربما يجتازون الخندق من ثلمة يستغلونها قد غفل الأرصاد عنها فيفسدون محاولة الاجتياز في بدايتها بمهاجمة المجتازين والقضاء عليهم .[٢٦] وكُدِّست الحجارة على حافة الخندق الجنوبية بالقرب من أماكن التسلل المحتملة ، وفي المناطق المشجرة حوالي المدينة ايضاً ، لتكون سلاحاً اضافياً في متناول الايدي ليرمي بها العدو قذفاً يدوياً او بواسطة المقاليع .[٢٧] والى جنب ذلك اتخذت التدابير المناسبة لحماية المناطق غير المحتلة احتلالاً مباشراً من الخندق نفسه بتوجيه الاحتياط عند اللزوم . ووضعت النساء والذراري في الصياصي والدور الداخلية من المدينة إبعاداً لها عن التعرض للهجوم .[٢٨]

وكان الرسول (ﷺ) يختلف الى ثلمة في الخندق (نقطة ضعيفة) ويقول : « ما أخشى أن يؤتى المسلمون الا منها . » وقد شجع بعض اصحابه على حراستها ، واذا عاد الى قبة القيادة (مقر القيادة) خلف القسم الاكبر ، حرسته فيها زمرة عباد بن بشر . وكان شعار المسلمين العام في معركة الخندق : « حم . لا ينصرون »[٢٩]

سير المعركة

الوقت والتاريخ :

اختلفت المصادر والمراجع في تعيين الوقت والتاريخ الذي جرت فيه معركة الخندق .

وللتوصل الى ما هو أقرب للواقع نطرح المعطيات المتيسرة على بساط الاستنباط الآتي :—

١ . جاء في المصادر الأربعة الرئيسة ما يأتي :—

أ . الواقدي : كانت الغزوة يوم الثلاثاء لثمانٍ مضت من ذي القعدة سنة خمس هجرية .[٣٠]

ب . ابن هشام : كانت غزوة الخندق في شوال سنة خمس هجرية .[٣١]

حـ . ابن سعد : كانت غزوة الاحزاب في ذي القعدة سنة خمس من مهاجره .[٣٢]

ء . الطبري : كانت غزوة الخندق في شوال سنة خمس هجرية .[٣٣]

٢ . جاء في أربعة مراجع اضافية ما يأتي :

أ . العمري : جرت غزوة الأحزاب في شوال سنة خمس هجرية وهوقول جمهور العلماء ومنهم ابن اسحاق والواقدي ومن تابعهم . ونقل عن الزهري ومالك بن انس وموسى بن عقبة انها كانت سنة اربع هجرية .[٣٤]

ب . جنرال اكرم : تحركت الأحزاب يوم الاثنين (٢٤ / ٢ / ٦٢٧) ميلادية الموافق غرّة شوال سنة خمس هجرية .[٣٥]

حـ . جورجيو : جرت معركة الخندق سنة (٦٢٧) ميلادية المطابقة لسنة خمس هجرية في غرّة شوال .[٣٦]

ء . جلوب : انتهى حفر الخندق في (٣١ / ٣ / ٦٢٧) ميلادية وقت وصول الأحزاب الى المدينة .[٣٧] (أي ٨ ذي القعدة)

٣ . لبيان ما نراه أقرب الى الواقع ، وتبديداً للخلافات السالفة المتعلقة بالسنة ، والشهر ، واليوم ندلي بوجهة نظر تقول :

آ ــ وقعت بيعة العقبة الثانية في ذي الحجة ، وبعدها ببضعة عشر يوماً والرسول (ﷺ) لما يزل في مكة هلَّ هلال المحرم الذي عده الجمهور العالم بداية السنة الهجرية الاولى لأن الرسول (ﷺ) هاجر من مكة الى المدينة في ربيع الأول من هذه السنة . وكان هذا اقوى ما وقف عليه السخاوي .[٣٨] وعليه تكون غزوة الخندق في السنة الخامسة الهجرية . وهناك قلة رأتْ ان بداية السنة الهجرية الأولى كانت عند هلال المحرم الذي هلَّ والرسول (ﷺ) في المدينة ولهذا تكون عندهم غزوة الخندق في السنة الرابعة . ولا خلاف حقيقة بين القولين .[٣٩]

ب . كانت غزوة الخندق في شوال . وقد جانب الحقيقة ساهياً من قال انها وقعت في ذي القعدة لأنَّ ذي القعدة من الأشهر الحرم منذ خلق الله الأرض . فلا قتال فيه لا في الجاهلية ولا في الأسلام

www.dorat-ghawas.com

الا لضرورة قصوى وقد علمنا ان حرية العمل كانت بيد المشركين فلا ضرورة لديهم للقتال فيه . قال تعالى * « إنَّ عدّة الشهور عند الله إثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خَلقَ السماوات والأرضَ منها اربعةٌ حُرُمٌ ... » *[٤٠] والاربعة الحرم هي شهر ذي القعدة وذي الحجة والمحرم ... ثم رجب .

حـ . نرجع ثانية ، من أجل معرفة اليوم ، الى جداول (فريمان ـــ فرجيل) كما ياتي :ـــ

من الجدول الأول تبدأ سنة خمس هجرية في (٢ حزيران ٦٢٦) م (اربعاء) = ١٥٢

من الجدول الثاني غرّة شوال يقابلها الرقم + ٢٦٧

المجموع = ٤١٩

نطرح سنة بسيطة زائدة − ٣٦٥

النتيجة = ٥٤

من الجدول الثالث مقابل (٥٤) نقرأ (٣ م شباط ٦٢٧) م وهي سنة بسيطة ايضاً .

من الجدول الأول نعلم ان السنة البسيطة (٦٢٧) م تبدأ يوم الخميس .

من الجدول الرابع نجد ان السنة البسيطة التي تبدأ يوم الخميس يصادف فيها (٢٣ شباط) يوم الاثنين وعليه يوم ١ شوال ٥ هـ = ٢٣ شباط ٦٢٧ م وهو الاثنين .[٤١]

تسلسل الحوادث :

تبدأ الحوادث بخروج الاحزاب من مكة وفتيان خزاعة حتى عودة المسلمين الى المدينة :

١ شوال الاثنين ٢٣ شباط: تحرك غالبية الاحزاب من مكة وفتيان خزاعة قاصدين المدينة .

٤ شوال الخميس ٢٦ شباط: وصول فتيان خزاعة الى المدينة وقيام المسلمين بالتشاور والاستطلاع .

٥ شوال الجمعة ٢٧ شباط: بدء الحفر في الخندق .

١٠ شوال الاربعاء ٤ آذار: الانتهاء من حفر الخندق في ستة أيام .

١١ شوال الخميس ٥ آذار: وصول الأحزاب الى مشارف المدينة في احد عشر يوماً

١٢ شوال الجمعة ٦ آذار: مناوشات كلامية ومهاجاة شعرية

١٩ شوال الجمعة ١٣ آذار: حماسية ومفاوضات تخذيلية لنقض العهود وخدع حربية وصفقات اقتصادية مغرية واستحضارات يهودية وتراشق بالنبل والحجارة عبر الخندق ومراقبة ليلية ونهارية .

٢٠ شوال السبت ١٤ آذار: عبور خالد بن الوليد وعكرمة بن ابي جهل بكردوسيهما الخندق ، والمبارزات الفردية وانسحاب الكردوسين دون تحقيق المارب من العبور .

٢١ شوال الاحد ١٥ آذار: عبور خالد بن الوليد بكردوسه الخندق واشتباكه بالقسم الاكبر امام جبل سلع وانسحابه دون تحقيق نتائج تذكر .

٢٢ شوال الاثنين ١٦ آذار } هدوء سبق العاصفة .
٢٣ شوال الثلاثاء ١٧ آذار }

٢٤ شوال الاربعاء ١٨ آذار: نعمة الله ، ريحٌ وجنودٌ غير مرئية أمست نقمةً على الأحزاب في ليلة حالكة الجلباب ادت الى انسحاب الأحزاب مدلجةً قبل انقشاع الضباب .

٢٥ شوال الخميس ١٩ آذار: عودة المسلمين بعد صلاة الفجر الى المدينة ، وكفى الله المؤمنين القتال .

الفعاليات الرتيبة :

قال أبو سفيان عندما انتهت معركة أحد مخاطباً المسلمين : ان موعدكم العام القادم لمعركة مماثلة . فاجابوه بامر النبي (ﷺ) : نعم بيننا وبينكم موعد . ثم تتابعت الأحداث على مدى أطول من عام حتى كان تحريض اليهود للاحزاب التي تحشدت للمعركة المنتظرة الموعودة . ظنت قريش انها ستلقى المسلمين في أحُد . فلما خاب ظنها ولم تجدهم هناك قصدت المدينة ، غير ان طلائعها اخبرتها باستحالة مهاجمة المدينة لمباغتتهم بالخندق (المانع المحفور) ، فاسقط في يدها . لقد جاء العدو ضخماً لينتصر فاعاقه الخندق فصرخ ابو سفيان غضبان حنقاً :

« إنَّ هذه مكيدة ما كانت العرب تكيدها » .[٤٢] ولو كان أبو سفيان قائداً حربياً وليس تاجراً متزعماً لوجد وسيلة عملية ، وان كانت مبتكرة ومحلية ، لعبور الخندق فالخندق ليس مجهولاً للعرب كما اسلفنا لا كما ذكر نفر من المؤرخين القدامى ، فاضطرت الاحزاب الى فرض الحصار على المسلمين من غير أهبةٍ فنية ولا معدات خاصة بعبور المانع ولا حتى تصوّرٍ لوجوده .[٤٣]

ومهما كان فقد تركت الاحزاب مخيماتها لتنتشر على امتداد حافة الخندق الخارجية (الشمالية) وبمحاذاته لتحاصر جند الله وكانت تقترب اكثر فاكثر من الخندق نهاراً وكان المسلمون يسترونه بقوات صغيرة من جانبهم للانذار المبكر ، وكان هناك تبديل لرماة النبل الذين كانوا يقظين طول الليلة المخفور فيها . وكانت الاحزاب تنسحب ليلاً الى أماكن تجمعها وتدأبُ دورياتها

www.dorat-ghawas.com

متنقلة على مسار الخندق لايجاد منفذ ملائم للعبور من خلاله.[٤٤]

مَضَت على الحصار عشرة أيام من دون اتخاذ أي قرار للمجابهة التعرضية ، سوى تبادل الطرفين رشق النبال وحرب الشعر ، والمقال ، والقيل والقال ، وكانت معنويات الطرفين وعزائمهم مستثارة ومستنهضة ثم ثبتت ثم تراجعت هابطة ، وبدأ المسلمون يحسون بوطأة الجوع ، ولم يكن في المدينة أهراء (مخازن) للطعام المجفف المجموع فما لديهم سوى خبز شعير مُلاث بدهن سنخ متغير اللون والطعم والرائحة ، وبعض التمر اليابس.[٤٥] واصبح المسلمون يعيشون على نصف تعيين يومي . والمؤمنون الصادقون منهم ظلّوا صامدين ولم تتزع ثقتهم بدينهم وأنفسهم .

ومع هذا فلم يعدموا قلّة منافقة مريضة قلوبها ، تزعزع ايمانها من الجزع والهلع والفزع عند الصدمة الأولى فقالت ــ كما جاء في القرآن ــ * « ما وعدنا الله ورسولهُ إلا غُرورا » *[٤٦] وطائفة مرتهبة خائفة تستأذن النبيّ (ﷺ) بحجة واهية كاذبة للفرار من المعركة فضحها القرآن ببعض آية من سورة الاحزاب * ... يقولون بيوتنا عورة وماهي بعورةٍ ان يريدون إلا فراراً » *[٤٧] وفريق من المعوقين القابعين في المدينة المثبطين لعزائم الاخرين * ... القائلين لاخوانهم هلُم الينا ولا يأتون البأس الا قليلاً[٤٨] امّا الكثرة الكاثرة الذين كان سعيهم مشكوراً فهم الذين صبروا ورابطوا في مواقعهم تصديقاً لوعد الله بنصرهم ، حتى قال تعالى فيهم * « ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا ايماناً وتسليماً » *[٤٩]

وبدأ موقف الاحزاب يسوء تدريجياً ويظهر التذمر بينهم بما يبذره شعراء المسلمين وخطباؤهم من خلافات كيدية ميدانها طرفا الخندق ، وهدفها النفس والوجدان ، وسلاحها الحجارة الصمان وأسلة اللسان ، لا النبل ولا السنان .

أضف الى ذلك ان الاحزاب ، بل العرب قاطبة لم يكونوا معتادين على الحصار الطويل الأمد والحرب المستقرة ، فهم يفضلون معركة يوم واحد سريعة فيها كروفر وشعارها « اضرب واغنم واسلب واهرب » . وزاد الطقس سوءاً فزاد من تضايق الاحزاب ، كما ظهر النقصان في كمية الطعام ، ونفقت بعض الخيول لنقص العرعى ولان أبا سفيان لم يتخذ التدابير اللازمة والتراتيب المطلوبة بشأن تخزين الطعام والعلوفة لمدة طويلة غير معروفة ولا مألوفة . ولكن بما ان الاحزاب كانوا أحراراً في تنقلاتهم خارج طوق الخندق فقد تمكنوا من جلب بعض المؤن لسد الرمق من مناطق نائية وهذا ما أغنى ولا اسمن من جوع[٥٠] ، فصار لزاماً على ابي سفيان الخروج من هذا المأزق .

تعاون الاحزاب واليهود :

خاف المحرض حيي بن اخطب ضياع الفرصة فحاول ان يوقع بين المسلمين وبني قريظة بنقض عهد موادعتهم لمحمد ليقطعوا عنه المعونة ويفتحوا المدينة من جهتهم . ذهب حيي الى كعب بن أسد صاحب عقد قريظة . شعر كعب بمجيئه فاغلق بابه دونه وهو يعلم انه اذا خان محمداً وانتصر محمد فانه سيحاربهم وسيجلي قومه اليهود عن المدينة . رفض كعب نقض العهد بادىء ذي بدء ورد العرض . استمر حيي يعرض ويحرض ويصف قوة الاحزاب ويعده الوعود المجزية واغراه بدعمه بالف مقاتل من قريش وألف من غطفان ليقوموا معاً بمهاجمة المدينة من الجنوب من منطقة العوالي (من فوق) حيث صياصيهم ودورهم.[٥١] ويؤمنه حاضراً ومستقبلاً ويذكره بما اصاب اليهود من المسلمين . ولسوء حظ كعب تغلبت يهوديته على عقله ولان في نهاية الحوار واعطى حيي موثقاً الى كعب ان رجعت قريش وغطفان بجران اذيال الخذلان ولم يصيبوا محمداً واهل القرآن ، ان يدخل معه حصنه ويشاركه حظه . وسيجعل في صياصي اليهود واطمهم حامية قوية للدفاع عنها تجاه اي حملة اسلامية انتقامية . قبل كعبٌ العرض ونقض العهد مع المسلمين وخرج عن الحياد فانتقض الامان وتأرجحت كفة الميزان .

بلغ الخبر النبي ﷺ فأوفد سعد بن معاذ سيد الأوس ، وسعد ابن عبادة سيد الخزرج ، وعبد الله بن رواحة ، وخوات بن جبير ليقفوا على جلية الأمر وقال لهم : « انطلقوا حتى تنظروا احق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ؟ فان كان حقاً فالحنوا لي لحناً أعرفه ولا تفتوا في اعضاد المسلمين ، وان كانوا على الوفاءفيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس . » فخرجوا حتى اتوهم فوجدوهم على اخبث ما بلغه عنهم . حاول سعد بن معاذ وهو حليف بني قريظة ان يقنعهم بالعدول عن نقض العهد خوفاً عليهم فلم يقبلوا . عاد الوفد الى الرسول ﷺ واصدقوه خبر نقض العهد.[٥٢]

وطبقاً لشروط التحالف ستقوم الاحزاب ، وبنو قريظة بهجوم خاطف على المسلمين من فوقهم ومن أسفل منهم .

وكانت مساكن القرظيين وصياصيهم على بعد يزيد على

www.dorat-ghawas.com

كيلين عن مركز المدينة وجنوب شرقها وسيهاجمون من هذا الاتجاه العالي بينما تهاجم الاحزاب جبهوياً من الشمال على حماة الخندق . وطلب بنوقريظة مهلة عشرة ايام للتهيؤ للهجوم على المدينة وتقوم الأحزاب خلالها بمناوشات تمهيدية موضعية ومشاغلة مقتضبة كسباً للوقت .

وحقيقةً بعد عودة حيي بن اخطب بدأ بنو قريظة باستطلاع معاقل المسلمين وحصونهم في المدينة وإمداد الاحزاب بالمؤن على الدواب كدليل عملي على انضمامهم اليهم . وقد سيطر المسلمون على عشرين حملاً من هذه المؤن .(٥٣)

ومرة طاف يهودي بحصن فارع وكان في الحصن الشاعر حسان بن ثابت مع النساء والصبيان فطلبت صفية بنت عبد المطلب من حسان ان ينزل ليقتله فاعتذر . فاخذت صفية عموداً ثم نزلت اليه من الحصن فضربته بالعمود فقتلته .(٥٤) ومرة أخرى خرجت زمرة من عشرة يهود من الصياصي بأمرة نباش بن قيس فاصدمت بدورية مسلمة من أصحاب سلمة بن أسلم فرامزهم بالنبل ثم انكشف القرظيون مولين الى الصياصي للتحصن في داخلها .(٥٥)

باشرت الاحزاب بتقريبها الى الخندق بثلاثة حشود ، او ثلاثة ارتال من الشمال على محور واحد ، وبالكيفية الآتية :

أ . رتل غطفان وأسد يتقدمهم بنو فزارة بقيادة عيينة بن حصن يتقدم من يسار المحور ويشكل الجناح الأيسر .

ب . رتل بني سليم بقيادة ابي الاعور سفيان بن عبد شمس يتقدم من فوق وادي العقيق ويشكل الجناح الأيمن للقوة .

جـ . رتل قريش ، الرتل المركزي ، بقيادة ابي سفيان وبمعيته خالد ابن الوليد وعكرمة بن ابي جهل وعمرو بن العاص ، يتقدم جبهوياً ليقابل مقر المسلمين وقسمهم الاكبر قبالة جبل سلع وعلى مدى محدود شمال الخندق .

قال تعالى في كتابه العزيز يصف الموقف وتقدم الاحزاب من الشمال وبني قريظة من الجنوب من الموالي (من فوق)

* « إذ جاؤوكم من فوقكم ومن اسفل منكم وإذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنون * هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً » *(٥٦)

الحرب خدعة :

اصبح الموقف الآن اكثر توتراً وأشد حرجاً ، ونقصت تعيينات الأرزاق اليومية لدى المسلمين من نصف التعيين الى ربعه ، وزادها مرور الأيام نقصاناً . وأهل المدينة لهم بعض العذر في بعض ما تفوهوه ، قال احدهم : « كان محمد يعدنا كنوز كسرى وقيصر ، واحدنا اليوم لا يامن على نفسه » وقال آخر : « ما كان اجدر بمحمد ان يقضي على بني النضير وأضرابهم فلا يذرهم يرتحلون فيؤلبون علينا الاحزاب ! . » . وقد وجد النبي ﷺ ان حلاً معتمداً على استخدام القوة العسكرية مباشرة لا ينفع كثيراً في الخروج من الأزمة . أذن لابد من الخدعة و « الحرب خدعة » ، فماذا يفعل ؟ !! لقد بعث الى غطفان يعدهم بثلث ثمار المدينة إن هي ارتحلت . وكانت غطفان قد بدأت تملّ المقام والانتظار وامتعضت من طول الحصار ، فجرى بينها وبينه الصلح حتى كتبوا الكتاب ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح الا المراوضة (المفاوضة المقنعة) في ذلك . فلما أراد الرسول ﷺ امضاء الفعل بعث الى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فذكر ذلك لهما واستشارهما فيه فقالا بعد حوار إيجابي :ـ

لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله ، وهم لا يطمعون منها ثمرة إلا قرى (ضيافة) او بيعاً ، أفحين أكرمنا الله بالاسلام وهدانا له ، وأعزنا بك ، نعطيهم أموالنا ؟ ! والله لا نعطيهم إلا السيف . فصوب رأيهما وقال : أنتما وذاك . فتوقفت الصفقة وانتهت المراوضة .(٥٧)

بحث الرسول ﷺ عن حل آخر لفك الحصار فكان المحاولة التخذيلية الحصيفة الذي قام بها نعيم بن مسعود الغطفاني ، وكان قد اسلم سراً وأتى الرسول ﷺ وقال له : اني قد اسلمت وأن قومي لم يعلموا باسلامي فمرني بما شئت .

قال له الرسول ﷺ : « انما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا ما استطعت فانّ الحرب خدعة . » .(٥٨) فارسله الى بني قريظة ، وكان نديماً لهم في الجاهلية ، فقال لهم : « انكم ظاهرتم قريشاً وغطفان على محمد ، وقد لا تستطيعان المقام طويلاً فتخليان ما بينكم وبين محمد فينكل بكم ، فلا تقاتلوا معهم حتى تاخذوا رهائن يكونون بايديكم حتى لا تنتحى قريش وغطفان عنكم . » . فاقتنعوا . ونهب الى قريش وقال لهم : « ان بني قريظة ندموا على ما فعلوا من نكث عهد محمد ، وانهم عاملون على استرضائه بان يقدموا له من أشراف قريش من يضرب أعناقهم ، فان بعثوا لكم يطلبون رهائن من رجالكم فلا ترسلوا أحداً . » . وصنع كذلك مع غطفان أيضاً .

ارسل أبو سفيان يوم الجمعة (١٩ شوال / ١٣ آذار) الى زعيم بني قريظة يقول له : « لقد طالت إقامتنا وحصارنا محمداً وقد هلك الخُف والحافر (الابل والخيل) وقد رأيت ان تعدوا الى القتال غداً ونحن من ورائكم حتى نناجزه ونفرغ مما

www.dorat-ghawas.com

بيننا وبينه . » . فجاء الرد : « غداً السبت ولا نستطيع القتال فيه ولا نتعدى في السبت . وقد تعدى فيه قوم منا سلفوا غضب الله عليهم ... » .[٥٩] ثم طلبوا الرهائن ليطمئنوا . فغضب ابو سفيان وصدّق حديث نعيم بن مسعود . ثم تكلم مع غطفان فترددوا طمعاً في إتمام صفقة ثلث ثمار المدينة التي انتقدها كما اسلفنا السعدان وغيرهما من وجوه الانصار . وهكذا قام نعيم بعمل عظيم اخرج به بني قريظة من التحالف مع الاحزاب .

إجتياز الخندق .

قرر خالد بن الوليد وعكرمة بن ابي جهل صباح اليوم التالي السبت (٢٠ شوال / ١٤ آذار) القيام بفعاليات يومية جريئة تكسر الركود المخيم على الاحزاب فتقدما الى امام على رأسي كردوسيهما ويمموا مكاناً ضيقاً مثلوماً يقع الى الغرب من تل ذباب حيث كان الخندق اقل عرضاً (يفري الفارس بالقفز) ويمكن اجتيازه على ظهر الجواد أو زحفاً بحماية الخيالة بعد اجتيازها ومسكها الحافة الثانية (راس الجسر) وكان هذا الموقع قريباً من القسم الاكبر للمسلمين عند سفح سلع . تقدم كردوس عكرمة أولاً ، قفزت كوكبة صغيرة منه ، اجتازت الخندق واقتربت من المسلمين . كان من بين المهاجمين عكرمة نفسه والفارس المشهور عمرو بن عبد ود .

فوجئ جند الاسلام بهذا الاقتحام . طلب عمرو بن عبد ودّ المبارزة بقوله :

ولقـــد بححت من النـــدا
ء بجمعكم هـــل من مُبـــارزْ
إن الشجـــاعـــةَ في الفتى
والجـــودَ مِنْ خيـــرِ الغـــرائـــزْ

فتصدي له الليث الغالب علي بن ابي طالب مجيباً :[٦٠]

لاتعجلنَّ فقـــــدْ أتـــــا
كَ مُجيبُ قـــولكَ غيرَ عـاجـزْ
ذو نيـــــةٍ وبصيـــــرةٍ
والصـــدقُ مُنجي كُلَّ فـــائـــزْ

فضرب عمرو علياً عدة ضربات تزاور عليّ عنها بمهارته ثم يُصبْ بأذى . رفع عليّ سيفه ذا الفقار وهوى به على عمرو فقتله فكبّر وكبّر المسلمون . انقضّت مجموعة من المسلمين على من تبقى من المقتحمين وكانوا ستة من قريش . قُتل نتيجة المجالدة بالسيوف قُرشي واحد وأستشهد مسلم واحد . بعد دقائق معدودات انسحبت كوكبة القُرشيين عبر الخندق .[٦١] لم يتمكن الفارس نوفل إبن عبد الله من الاجتياز فسقط في الخندق فرموه بالحجارة ثم نزل اليه الزبير بن العوام فقتله بضربة واحدة فقالوا له : ما رأينا مثل سيفك ؟ ! فقال : « والله ما هو السيف ولكنها الساعد »[٦٢] ومن سُموّ روح القتال عند سعد بن معاذ قوله وقد اصيب اكحلهُ : « اللهم إن كنت أبقيتَ من حرب قريش شيئاً فأبقني لها ... » .[٦٣] عادت مجموعة المسلمين الى المعسكر وشددت الحراسة على ثغرة اقتحام .

عصر اليوم اللاحق الأحد (٢١ شوال / ١٥ آذار) تحرك خالد بن الوليد بكردوسه على أمل أن ينجح من حيث أخفق عكرمة . حاول العبور ولكن يقظة المسلمين رصدت حركته فمنعته . جرى تراشق بالنبل فقتل قرشي آخر واستشهد مسلم ثان واخفق كردوس خالد في العبور عند الصولة الاولى لانه صادف أُسيد بن حضير ومئتين من الانصار قد سدوا الثغرة متمركزين قبالة المغيبين .[٦٤] تحرك خالد الى الخلف خداعاً ومكراً . انسحب المسلمون للراحة . وفجأة كرّ خالد بكردوسه مسرعاً وعبروا الخندق قبل ان يتمكن الحراس من الانتشار ثانيةً ، ووصل الى منطقة القسم الاكبر . وسرعان ما انتشر جند الله واوقفوا كردوس خالد عن مواصلة التقدم . كانت المقاومة الاسلامية شديدة ومنتظمة وجريئة فلم يحقق المشركون نجاحاً ذا بال . اشتبك الطرفان إشتباكاً قريباً وتمكن خالد من قتل مسلم واحد ، وقتل وحشيُ الذي كان مع المغيبين مسلماً آخر بحربته . وقبل ان يمضي وقت طويل انتهى الاشتباك وانسحب خالد وكردوسه بعد ان تيقّن أن الموقف لا يحقق له نصراً .[٦٥]

كان هذا الاشتباك آخر عمل تعبوي رئيسي في معركة الخندق . وكانت حصيلة خسائر الطرفين في الأرواح ، سوى الجرحى ، قتل ثلاثة نفر من الاحزاب واستشهاد ستة من المسلمين ذكرهم الواقدي بأسمائهم .[٦٦] وأجملهم جورجيو والجنرال اكرم بأربعة من كل طرف من الطرفين .[٦٧]

الهدوء والعاصفة .

لم يحدث اي نشاط في اليومين التاليين (٢٢ ، ٢٣ شوال / ١٦ ، ١٧ آذار) سوى تراشق بالنبل والحجارة . وكاد ينفذ طعام المسلمين فصبروا ورابطوا بشجاعة وعزم مشهودين .

أما الاحزاب فاستعرت روحهم المعنوية بالهبوط وصيحات التذمر بالتفاقم . وتيقن المؤمنون المرابطون أن حملة الاحزاب

www.dorat-ghawas.com

التي جاءت لتنتصر في الربيع باءت بالفشل الذريع وانتشرت بين الفئات البلبلة والشقاق وبات الموقف لا يطاق لأنّ احداً لم يستطع ايجاد مخرج من هذا المازق المحرج .

في مساء الاربعاء (٢٤ شوال / ١٨ آذار) جاء الفرج من الله تعالى ليلًا إذْ زمجرت الريح الباردة في جنبات الوادي وهطلت الامطار غزيرة وقصف الرعد وخطف البرق وانخفضت درجات الحرارة فجأة واشتدت العاصفة .[٦٨]

أرسل النبي ﷺ حذيفة بن اليمان متحسساً خبر القوم وقال له : « انهب فادخل في القوم وانظر ماذا يصنعون ولا تحدثنّ شيئاً حتى تأتينا . »[٦٩] وكان معسكر المشركين اكثر تعرضاً للعاصفة من معسكر المسلمين فاطفأت النيران التي كانوا يشعلونها بكثرة بغية التدفئة والارهاب ، وكفأت قدورهم واقتلعت خيامهم .[٧٠] قال تعالى في ذلك :

● ياأيها الذين آمنوا أذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جُنودٌ فارسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً ●[٧١] وقال ● وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً ●[٧٢]

ظنّ المشركون ان محمداً سيهتبل هذه الفرصة ليشد عليهم بهجوم مقابل فقالوا : « إنّ محمداً قد بدأكم بشر فالنجاء النجاء . »[٧٣]

وقال ابو سفيان : « يا معشر قريش انكم والله ، اصبحتم بدار مقام لقد هلك الكراع والخف والحافر وشحّ العلف ... واخلفتنا بنو قريظة ... ولقينا من شدة الريح ما ترون ... فارتحلوا ، إني مرتحلٌ . » . وسمعت غطفان قول ابي سفيان فرجعت الى ديارها وكهنه عادت البقية ،[٧٤] وكتب ابو سفيان كتاباً الى سيد ولد عدنان ﷺ فيه :

« باسمك اللهم ... لقد سرنا اليك في جمعنا لنستاصلك فكرهت لقاءنا وجعلتَ مضايق وخنادق فليت شعري من علمك هذا ؟ ... فان نرجع عنكم فلكم منا يوم كيوم أُحدُ ... » . فكتب الرسول ﷺ اليه :

« ..... أمّا بعد فقد غرّك بالله الغرور ... اما ما ذكرت انك سرت الينا في جمعكم ، وانك لا تريد ان تعود حتى تستاصلنا ، فذلك أمرٌ الله يحول بينك وبينه ، ويجعل لنا العاقبة ، واما قولك من علمك هذا الذي صنعنا من الخندق . فانّ الله تعالى ألهمني ذلك ... » .[٧٥]

وعادت قريش القهقرى حذرةً وقد حرس ساقتها خالد بن الوليد وعمرو بن العاص في مئتي فارس خوفاً من المطاردة وردأ لهم من الطلب .[٧٦]

وعند أذان فجر الخميس عاد حذيفة الى الرسول الامين ﷺ بالخبر اليقين ،[٧٧] فقال : « يا رسول الله ، تفرق الناس عن ابي سفيان ، فلم يبق الّا في عصبة يوقد النار ، وقد صب الله عليهم البرد مثل الذي صبّ علينا ولكن نرجو من الله مالا يرجون . » .[٧٨] فقال الرسول ﷺ : « لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعزّ جنده وهزم الاحزاب وحده .[٧٩] وانن ليلُ الأزمة بالبلج ورفع المسلمون اكفّ الشكر لله المنعم بالنصر والفرج .

وفي صباح يوم الخميس (٢٥ شوال سنة خمس هجرية الموافق ١٩ آذار ٦٢٧ ميلادية) وَجَدَ المسلمون الميدان خالياً من الاحزاب فعادوا الى منازلهم في المدينة .

وانتهى يوم الاحزاب أو غزوة الخندق التي كانت حصاراً ومناوشة اكثر منها معركة ومهارشة لان الطرفين لم يشتركا بقتال فعّال واسع النطاق حقيقة . ويمكن اجمال اسباب الفشل فيما يأتي :—

١ . إلهية : انزل الله فيها قرآناً ونصت عليها الآيتان التاسعة والثالثة والثلاثون من سورة الاحزاب وأفصحتا عن الريح الباردة والجنود غير المرئية والفيض الدفين القاتل . وقد اوردنا الآيتين آنفاً عند الكلام على الهدوء والعاصفة .

٢ . طبيعية : وهي الخندق المحفور ، وبرودة الطقس القارس واختلاف درجات الحرارة بين جو مكة وديار الاحزاب من جهة وجو المدينة من جهة اخرى . ثم انجاز جني المحاصيل قبل وصول الاحزاب ونقلها الى الاهراء (المخازن) فلم يبق غير المراعي الجرداء والاراضي البركانية العديمة النماء .

٣ . زمنية : إن شهر شوال مؤذن بالأفول ويدنو هلال ذي القعدة ، أحد الاشهر الحرم الذي يمتنع فيه القتال آنذاك عرفاً صارماً ولا يتوقعون بما تبقى لديهم من وقت قصير تحقيق نصر كبير يتناسب وما أعدّوا له .

وكان العرف السائد انهاء القتال في يوم واحد .

٤ انفصالية : انفصال بني قريظة عن مساعدة الاحزاب بتوحيد الجهود ونبذهم ما أعطوهم من عهود وذلك بتخذيل نعيم بن مسعود .

٥ . تدبيرية : ظهرت بعض السلبيات في تدبير ما يحتاج اليه القتال من مستلزمات . منها ، فشل الاستخبارات في معرفة شيء عن الخندق وإنْ عُزي ذلك الى ضيق الوقت . ومنها ، اخفاقهم في ايجاد محور ثانٍ للهجوم على المدينة كأنْ يوجهوا رتلًا من منطقة

www.dorat-ghawas.com

بني قريظة من الموالي وقت نقض اليهود عهدهم مع المسلمين فيحمي اليهود منطقة تحشد هذا الرتل وخط شروعه عند الهجوم فيقع المسلمون بين فكي كماشة .

- ومنها ، نقصان الطعام والاعلاف فلا خزين لديهم منها كافٍ . أضف اليها فقدان وسائط العبور وعدم التشبث بتدبيرها محلياً .

٦ . موسمية : لم يبق على موسم الحج الوثني سوى شهر واحد باستثناء أحد عشر يوماً زمن العودة الى مكة .

وهذا لا يكفي لاقامة الأسواق الموسمية الخاصة بمناسبة الحج والتي تدر المكاسب المالية الطائلة فهذه مثلاً سوق عكاظ تقام في منتصف ذي القعدة .[٨٠] وينتظرها المكيون بفارغ الصبر ليملأوا خزائنهم بفائض أرباح تكفيهم نفقة عام أو تزيد . أمّا اشراف قريش وسادتها وقادتها فهم في شوق قتّال الى الجاه والمال ، ولا يريدون الغياب عن الموسم لكيلا تنتقص هيبتهم الدينية المتأتية من اشرافهم على مناسك الحج الوثني ، ولا يريدون التضحية بالمكاسب المالية الضخمة حصيلة الأسواق الموسمية .[٨١] فالجاه ترجوه الوجوه ، والمال تهواه الرجال ، والقفول ينول المأمول .

الحصيلة :

كانت هذه الغزوة نصراً للمسلمين لانهم حققوا هدفهم ، بينما فشلت الاحزاب في محاولته استئصال الدين والقضاء على المسلمين ، فقد حال الله بينهم وبينه ، وجعل العاقبة للمسلمين ، كما قال الرسول الامين ﷺ : ان معركة الاحزاب كانت معركة أعصاب لم يجر فيها قتال صخاب ثعاب إلا انها كانت من المعارك الحاسمة في تاريخ الاسلام فقد خذل الله جموع المشركين على الرغم من كثرتها الكاثرة وحماستها لتحقيق غايتها وبعد المعركة انتقل المسلمون من حال الدفاع الى مجال التعرض . ولذلك قال النبي ﷺ : « الآن نغزوهم ولا يغزونا ، نحن نسير اليهم . » .[٨١] وقد نزلت في هذه الغزوة التي وصفها الله باحزابها ، واسميناها يوم الاحزاب ، ست عشرة آية من سورة الاحزاب من (٩ ــ ٢٥) فمن شاء فليراجعها في كتابة الله العزيز .

العبر (الدروس المستنبطة)

المخادعة :

من تعاريف الحرب أنها آخر الوسائل السياسية لبلوغ هدف الامة . والقائد الاعلى هو الذي يحاول حلّ قضايا أمته سلمياً ما استطاع الى ذلك سبيلًا . كانت هذه الغزوة أول مثل في صدر الاسلام على استخدام ما يعرف اليوم بالسياسة والكياسة (الدبلوماسية) على عتبة الحرب او في مستهلها . وهي تظهر تفاعل السياسة والقوة في تحقيق الهدف أو نيل المارب . وان استخدام القوة المسلحة ، وهي أحد الملامح العنيفة للحرب ، يتم عندما تفشل الاجراءات السياسية في تحقيق هدف الدولة فقط . وهذا ما فعله الرسول ﷺ عندما استخدم الكياسة لبذر الشقاق في صفوف الاحزاب باغراء غطفان بثلث ثمار المدينة وبتخذيل نعيم ابن مسعود للأحزاب واليهود ، معنوياً وليس مادياً فحسب . ان كلمة الرسول ﷺ « الحرب خُدعة »[٨٢] اصبحت مبدأ حربياً .

امّا على صعيد الاحزاب فقد قام حيي بن أخطب باغراء بني قريظة بنبذ عهد المسلمين .

المباغتة :

باغت المسلمون الاحزاب بالخندق وسيلة الدفاع المحوّرة ميدانياً لحماية المدينة عن بعد .

لم تكن قريش وحلفاؤها قد مارسوا اجتيازها ولم يتوقعوها وان كانوا قد رأوا الخندق من قبل في محيط حصون ثقيف وغيرها . ان هذه المباغتة احبطت عزيمة الاحزاب ، فبينما كانوا يعتقدون بظهور المسلمين عند جبل أحدٍ كما ظهروا في معركة أحد قبل سنتين أو يجدونهم في المناطق المبنية داخل المدينة ، اذا بهم يباغتون بالأسلوب التعبوي المبتكر والمكان المغاير لما سبق والأهبة المكثفة وحسن الافادة من الوقت المتيسر للاستحضارات .

روح القتال :

تازم الموقف بعد مرابطة الاحزاب على حافة الخندق وحصارهم للمسلمين في مجال ضنك وظاهرتهم في ذلك بنو قريظة واخذ التعب والاجهاد يؤثر على كفاية المسلمين ونفسيات بعضهم واشتد عليهم البلاء . ومع هذا كله تشربت قلوب المؤمنين الصامدين المتحلين بروح القتال المتوهجة ، بقوله تعالى في سورة البقرة

« أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولَما يأتكم مثلُ الذين خلوا من قبلكم ، مستهم البأساءُ والضراءُ وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ، الا إنَّ نصر الله قريبٌ »[٨٣] فزادهم هذا القول ثباتاً على الجهاد واصراراً على المطاولة والمرابطة وتصديقاً لوعد الله بقرب نصره لهم حتى قال تعالى يشرح موقفهم « ولمّا رأى المؤمنونَ الاحزابَ قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله

www.dorat-ghawas.com

وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً ● من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً ●[٨١]

ولمن اراد المثال ليرجع البصر الى سير المعركة ويطلع على افاعيل الفتى الغالب علي بن ابي طالب ، والفارس المقدام الزبير بن العوام والسعدين ابن معاذ وابن عبادة وأسيد بن حُضير ونعيم ابن مسعود وحذيفة بن اليمان واضرابهم وصفية بنت عبد المطلب . وكثيرون هم من سهت عن بطولاتهم الكتب لكن اجرهم عند ربهم قد كتب وحسب .

القيادة :

كان الرسول ﷺ قدوة حسنة لجنده ، أعانهم في الحفر وعانى معهم الجوع والقر وحمى الثغرة مع الحرس وحضر في المكان المناسب في الوقت المناسب وعند أشتداد الفعاليات . ويوصي النقباء باليقظة والحذر ويبثُّ الارصاد والدوريات والمتحمسين للاخبار بالمعلومات المستجدة .

وعلى صعيد المشركين كان تناوب القيادة المتراوح بين ابي سفيان ورؤساء الاحزاب توهيناً لقدرة القائد الاعلى على صنع القرار الأوفى عند تطور الحوادث وتحديداً لانطلاق أفكاره لو شاء تغيير الخطة لأسباب موحية ، وتوسعاً في المبادرات الفردية المحلية . فهذا عكرمة يهاجم بكربوس واحد لادامة الهجوم المحلّي من غير ان يكون لديه مدد أو يدعم باحتياط لادامة الزخم . وكذلك صنع خالد عصر يوم آخر دون استشارة رئيس او قائد . إنَّ سياب القيادة العليا يُفقد الحركات الكثير من أمور التنسيق وتوحيد الجهود وتحول الاضطرابات دون بلوغ الهدف .

الامن :

كان الرسول ﷺ يبعث السرايا ، وربما يغزو ، في الانحاء والأرجاء للارشاد والهداية والاحتواء ثم للاطلاع على مواقف الاعراب الكثيرة التغير . وربما أجرت هذه السرايا استطلاعاتها بالقوة لارهاب أهل الفتن والاهواء . كل ذلك من أجل تحقيق الامن وتوفير السلامة للمجتمع الاسلامي في مناطق انتشاره .

وقبيل هذه الغزوة وقبل معرفة الرسول ﷺ بتحرك الاحزاب من مكة الى المدينة بمدة وجيزة تطامن الامن وتعزز بغزوتي ذات الرمع ودومة الجندل لارهاب القبائل المقصودة بهما ومنعهم من الانضمام الى قريش واعداء المسلمين . ونشطت مصادر استخبارات الرسول ﷺ حتى في مكة نفسها . فهؤلاء فتيان خزاعة ، وخزاعة موضع سر الرسول ، يغذون السير الى المدينة ليطلعوا الرسول ﷺ على خبر مسير الاحزاب . وهذا زعيم غطفان يبوح بخبر اتفاقه مع قريش على المسلمين فيلتقطه الرسول ﷺ ويضيف اليه ما قال فتيان خزاعة فيقرر كسب الوقت للتهيؤ والاستحضارات اللازمة . ويتعزز الامن ايضاً بحفر الخندق وفي اثناء الحصار بنشر الدوريات حول المدينة والمناطق الواهنة من محيط الميدان كلّه وتعيين نقاط الرصد والمراصد الثابتة . وايفاد من يتحسس نيات بني قريظة ومراقبة تحركاتهم العدائية ، وارسال حذيفة بن اليمان الى مخيمات الاحزاب ومجلس قادتهم لكشف موقفهم الحاضر وما يزمعون القيام به .

حرب الطبيعة :

لقد سخر الله جنوده ، ومنهم الريح الشديدة . وحفر المسلمون الخندق بطريقة فريدة .

اما المشركون فلم يوفقوا في تعيين اوان المعركة ، فقد وصلوا الى المدينة والخندق حاجز والدفاع ناجز ، والطقس مغاير ومتغير . وازداد سوء الحال ليلة الارتحال فالشتاء ما يزال يجرر الاذيال ، والمطر هطّال ، والرعود قاصفة والريح عاصفة ، قلبت قدور الطعام واقتلعت الخيام ، فلا وتدٌ لبد ولا سقف صَمَدَ ، ولا حطبٌ اتقد ، والعون محدود ، والزرع والكلأ محصود والخندق أحد السدود ، والحرتان تحددان حركة الفرسان . وقد وصف حذيفة بن اليمان تلك الليلة الحالكة الطيلسان فقال : « ما اتت علينا ليلة قط أشد ظلمة ولا أشد ريحاً منها ، تطن في رياحها اصوات امثال الصواعق ، وما يستطيع احدنا ان يرى أصبعه من قتامها السائد . » . ولم يتدبر المشركون أمرهم بجلب معدات اجتياز المانع وتجهيزات اتقاء البرد مما قلل من قدراتهم .

مسك الختام

لله الحمد من قبلُ ومن بعدُ والصلاةُ والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه وأتباعه أجمعين ، وبعدُ

نضّر الله أخاً أصغى لقولي ... ووعاهُ وعي إنسان نبيهْ

وأتاني حيثُ أخطأتُ بنصحٍ ... وهداني لمكان اللبس فيهْ

وجزاه الله عني كلّ خيرٍ ... إنما المؤمن مرآة أخيهْ

www.dorat-ghawas.com

معركة الخندق

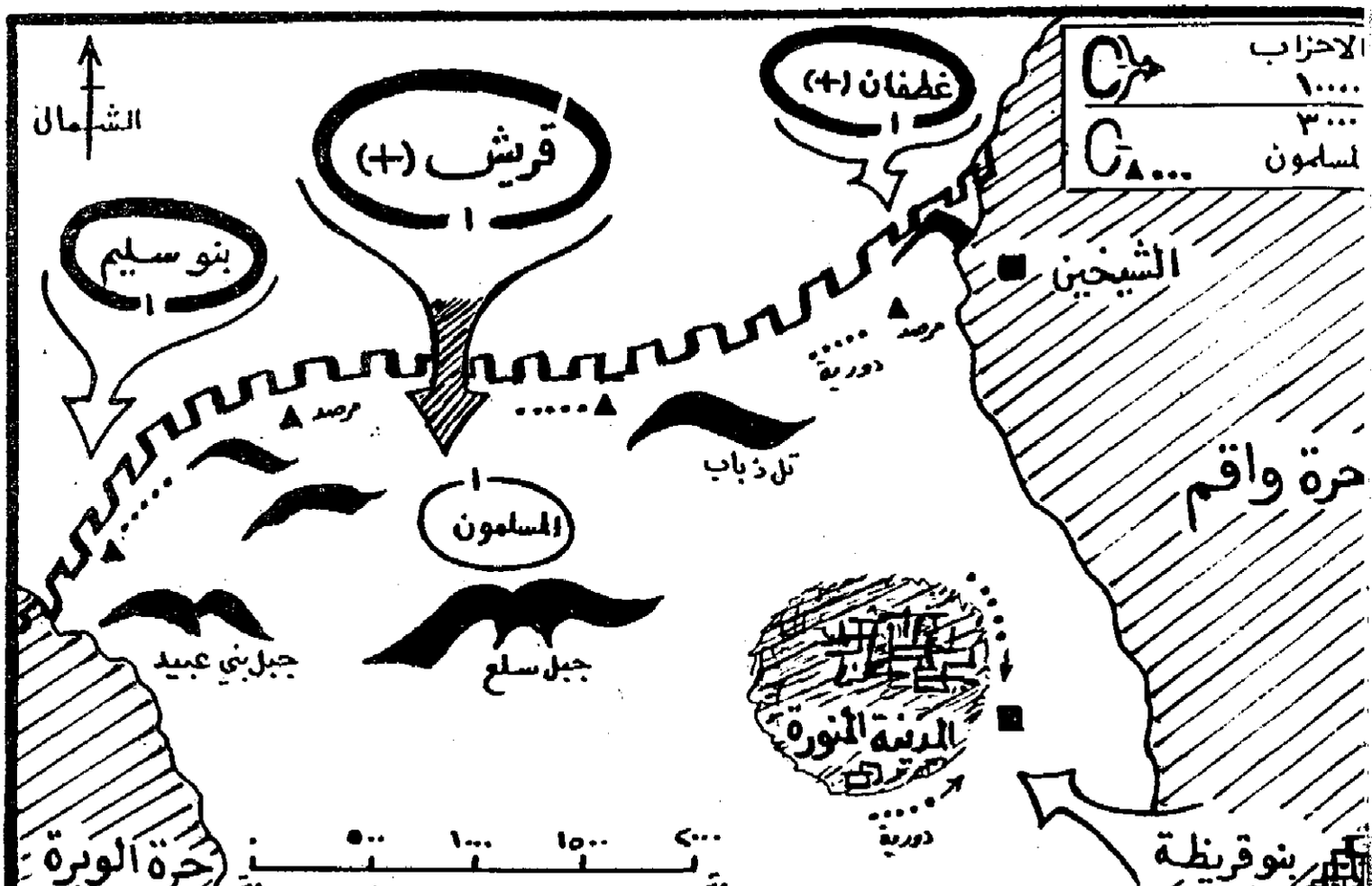

الهوامش

(١) جنرال اكرم . سيف الله . مترجم ط ١ بيروت ١٩٨٢ ص ٧٥ .

(٢) سورة النساء / ٥١ ، ٥٢ .

(٣) ابن هشام ، ابو محمد عبد الملك . السيرة النبوية محققة ط مصر ١٩٥٥ ج ٢ ص ٢١٥ . الطبري ، محمد بن جرير . تاريخ الرسل والملوك . محقق ط ٢ مصر ١٩٦٧ ج ٢ ص ٥٦٥ .

(٤) جنرال اكرم ص ٧٥ .

(٥) ابن حزم ، الاندلسي ، علي بن احمد . جمهرة انساب العرب محقق ط ٢ مصر ص ٤٨١ .

(١) الواقدي ، محمد بن عمر . المغازي . محقق ط بيروت ج ٢ ص ٤٤٣ ، ٤٩٤ . ابن سعد ، محمد . الطبقات الكبرى ط بيروت ج ٢ ص ٦٦ . ابن قيم الجوزية محمد بن ابي بكر . زاد المعاد في هدي خير العباد ط مصر ١٩٧٠ ج ٢ ص ١٣٠ . جنرال اكرم ص ٧٦ .

(٢) الواقدي ج ٢ ص ٤٥٤ .

(٣) ابن هشام ج ٢ ص ٢٢٠ . ابن سعد ج ٢ ص ٦٦ .

(٤) الكيل : مصطلح أطلقه المجمع العلمي العربي في دمشق على الكيلو متر .

(٥) محمود الدرة . تاريخ العرب العسكري ط ١ بيروت ١٩٦٤ ص ١٣٠ .

(٦) جنرال اكرم ص ٧٨ .

(٧) اكرم ضياء العمري . السيرة النبوية الصحيحة ط ٤ المدينة المنورة ١٩٩٣ ج ٢ ص ٤٢٠ .

(٨) جورجيو ، كونستانس . نظرة جديدة في سيرة رسول الله . مترجم ط ١ بيروت ١٩٨٣ ص ٢٨٨ واكد الواقدي في مغازيه (٢ / ٤٤٣) ان صفقة الثمار هذه كانت بين يهود خيبر وعيينة بن حصن زعيم غطفان .

(٩) الواقدي ج ٢ ص ٤٤٤ ، ٤٤٥ .

(١٠) ابن سعد ج ٢ ص ٦٦ .

(١١) سورة النور / ٦٢ .

(١٢) سورة النور / ٦٣ ، ٦٤ .

(١٣) اكرم ضياء العمري ج ٢ ص ٤٢٣ .

(١٤) جنرال اكرم ص ٧٧ .

(١٥) جنرال اكرم ص ٧٨ .

www.dorat-ghawas.com

(١٦) اكرم ضياء العمري ج ٢ ص ٤٢١ .
(١٧) احمد عادل كمال . الطريق الى المدائن ط١ بيروت ١٩٧٢ ص ١٤٤ . محمد ضياء الدين الريّس . الخراج . ط١ مصر ١٩٧٧ ص ٢٨٨ . صبحي الصالح . النظم الاسلامية ط٤ بيروت ٩٧٨ ص ٤١٥ .
(١٨) جورجيو ص ٢٩٠ .
(١٩) جندال اكرم ص ٧٧ ، ٨١ .
(٢٠) ابن هشام ج ٢ ص ٤٨٧ .
(٢١) الواقدي ج ٢ ص ٤٥٤ . ابن سعد ج ٢ ص ٦٧ . ابن سيد الناس ، محمد بن محمد . عيون الأثر ط٢ بيروت ١٩٧٤ ج ٢ ص ٥٧ .
(٢٢) الحلبي ، علي بن برهان ، السيرة الحلبية ط بيروت . لات . ج ٢ ص ٣١٤ .
(٢٣) جورجيو ص ٢٨٨ .
(٢٤) ابن هشام ج ٢ ص ٢٢٠ .
(٢٥) ابن هشام ج ٢ ص ٢٢٠ .
(٢٦) ابن سعد ج ٢ ص ٦٧ .
(٢٧) الواقدي ج ٢ ص ٤٤٦ . جورجيو ص ٢٩١ .
(٢٨) جندال اكرم ص ٧٨ .
(٢٩) ابن هشام ج ٢ ص ٢٢٦ . الواقدي ج ٢ ص ٤٧٤ .
(٣٠) الواقدي ج ٢ ص ٤٤٠ .
(٣١) ابن هشام ج ٢ ص ٢١٤ .
(٣٢) ابن سعد ج ٢ ص ٦٥ .
(٣٣) الطبري ج ٢ ص ٥٦٤ .
(٣٤) اكرم ضياء العمري ج ٢ ص ٤١٨ .
(٣٥) جندال اكرم ص ٧٦ .
(٣٦) جورجيو ص ٢٨٨ .
(٣٧) جلوب ، جون باجوت . حياة محمد وعهده غير مترجم ط امريكا ١٩٧٩ ص ٢٤١ ، ٢٥٣ .
(٣٨) السخاوي ، محمد بن عبد الرحمن . الاعلان بالتوبيخ لمن ذم اهل التاريخ ص ٥٠٨ المطبوع ملحقاً بكتاب علم التاريخ عند المسلمين لروزنتال المترجم والمطبوع ببغداد ١٩٦٣ .
(٣٩) اكرم ضياء العمري ج ٢ ص ٤١٨ .
(٤٠) سورة التوبة / ٣٦ .
(٤١) فريمان ـ فرجيل . التقويمان الهجري والميلادي . مترجم ط بغداد ١٩٧٠ صفحات الجداول الأربعة .
(٤٢) ابن هشام ج ٢ ص ٢٢٤ . ابن سعد ج ٢ ص ٦٨
(٤٣) جورجيوص ٢٩٢ .
(٤٤) جندال اكرم ص ٧٩ ومدة الحصار لديه (٢٣) يوماً .
(٤٥) البخاري ، محمد بن اسماعيل . صحيح البخاري ط بيروت . لات . مغازي / ١٣٩ .
(٤٦) سورة الاحزاب / ١٢ .
(٤٧) سورة الاحزاب / ١٣ .
(٤٨) سورة الاحزاب / ١٨ .
(٤٩) سورة الاحزاب / ٢٢ .
(٥٠) جندال اكرم ص ٨٠ .
(٥١) الواقدي ج ٢ ص ٤٦٠ .
(٥٢) ابن هشام ج ٢ ص ٢٢١ ، ٢٢٢ . الواقدي ج ٢ ص ٤٥٩ . جندال اكرم ص ٨٠ .
(٥٣) الحلبي ج ٢ ص ٣٢٣ .
(٥٤) الطبري ج ٢ ص ٥٧٧ .
(٥٥) الواقدي ج ٢ ص ٤٦٢ .
(٥٦) سورة الأحزاب / ١٠ ، ١١ .
(٥٧) ابن هشام ج ٢ ص ٢٢٣ . ابن سعد ج ٢ ص ٧٣ .
(٥٨) ابن هشام ج ٢ ص ٢٢٩ .
(٥٩) ابن سعد ج ٢ ص ٦٩ .
(٦٠) الحلبي ج ٢ ص ٣١٩ .
(٦١) جندال اكرم ص ٩٠ .
(٦٢) الواقدي ج ٢ ص ٤٧٢ * الحلبي ج ٢ / ٣٢٠ .
(٦٣) ابن هشام ج ٢ ص ٢٢٧ * الحلبي ج ٢ / ٣٢١ .
(٦٤) الحلبي ج ٢ ص ٣٢٣ .
(٦٥) جندال اكرم ص ٩١ .
(٦٦) الواقدي ج ٢ ص ٤٩٦ .
(٦٧) جورجيوص ٢٩٩ * جندال اكرم ص ٩٢ .
(٦٨) جورجيو ص ٢٩٨ .
(٦٩) ابن هشام ج ٢ ص ٢٣٢ .
(٧٠) ابن سعد ج ٢ ص ٧١ .
(٧١) سورة الاحزاب / ٩ .
(٧٢) سورة الاحزاب / ٢٥ .
(٧٣) محمود الدرة ص ١٣٨ .
(٧٤) ابن هشام ج ٢ ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ .
(٧٥) الواقدي ج ٢ ص ٤٩٢ ، ٤٩٣ * الحلبي ج ٢ ص ٣٣١ .
(٧٦) ابن سعد ج ٢ ص ٦٩ .
(٧٧) جلوب ص ٢٤٩ .
(٧٨) اكرم ضياء العمري ج ٢ ص ٢٣١ .
(٧٩) بخاري / مغازي / ١٢٣ .
(٨٠) سعيد الافغاني . اسواق العرب في الجاهلية والاسلام ط دمشق ١٩٣٧ ص ٢٤٩ .
(٨١) جلوب ص ٢٤٩ .
(٨١) بخاري / مغازي / ٢٩ .
(٨٢) خَدَعَةٌ وخُدَعَةٌ وخُدَعَةٌ .
(٨٣) سورة البقرة / ٢١٤ .
(٨٤) سورة الاحزاب / ٢٢ ، ٢٣ .

www.dorat-ghawas.com